لا تظنَّ أني ثمل، وأني صريع الهوى، بل إنني سيد مملكة العشق، لقد تجرَّدت من أسباب المادة وربقة الشهوات، فالعشق الطاهر خلاصة الوجود.

قيس وليلى

جنون الحب.. حب وجنون

لم تشتهر قصة غرامٍ في الأدب العربي كما اشتهرت قصة ليلى والمجنون. فقد أجمع الرواة على أن قصة ذلك الحب العُذري الطاهر بين قيس بن الملوح وليلى العامرية قد وقعت خلال العصر الأموي، وقيل إن وفاة قيس كانت بين 65 /68 هـ، دارت أحداث قصة الحب بين قيس وليلى في الجزيرة العربية بجبل التوباد وظلت الأجيال ترويها جيلًا بعد جيل وكتبت حولها المئات وربما الآلاف من الروايات والقصائد والقطع الأدبية المختلفة، على مرّ العصور عربيٌّ وأعجميٌّ، فكتب عنها الروايات والمسرحيات ونظمت القصائد الشعرية أغلبها تحت مسمى (مجنون ليلى)، وتعدُّ أشهرها في العصر الحديث المسرحية الشعرية التي كتبها أمير الشعراء أحمد شوقي بنفس الاسم.

وانتشرت بين أدباء فارس، حيث نظمت هذه القصة في الأدب الفارسي أكثر من مرة، وكان أشهرها "لنظام الكنجوي"؛ حيث نظمها فيما لا يزيد على أربعة آلاف وخمسمائة بيت، وكذلك عالج قصة قيس وليلى الكثير من شعراء الفرس، منهم سعدي الشيرازي ثم خسرود هلوي، ثم عبد الرحمن جامي وغيرهم، وإن كانت أشعارهم جميعهم تشترك في الملامح العامة الفلسفية والآراء الاجتماعية الصوفية.

ولقد رويت القصة بروايات مختلفة في عدد من المراجع، ولكن أجمع الكل على بعض الثوابت نشأة قيس وليلى ونشأة حبهما.

لقد نشأ قيس وليلى في بني عامر في نجد، وذكر أغلب الرواة أن قيسًا وقع في غرام ليلى منذ أن كانا صبيين صغيرين يرعيان غنم أهلهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله:

تعلَّقتُ ليلى وهي ذاتُ تمائمٍ

ولم يبدُ للأترابِ من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البَهم يا ليت أننا

إلى اليوم لم نكبُر ولم تكبُر البَهمُ

عشقتُكِ يا ليلى وكنتِ صبيَّةً

وكنتُ ابن سبعٍ ما بلغتُ ثمانيا

ولم يكن قيس يعرف الحبَّ قبل ذلك، فاستحوذ حبُّ ليلى على عقله وقلبه وثبت في القلب، كما قال لها في أحد قصائده:

أَتاني هواها قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهوى

فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكَّنا

وبادلته ليلى الحب بالحب والإنشاد بالإنشاد وصارحته بالغرام في قصائدها، وقالت له مرة:

كِلانا مُظهِرٌ للناسِ بُغْضًا

وكُلٌّ عندَ صاحبِهِ مكينُ

تبلِّغُنا العيونُ بما أَرَدْنا

وفي القلبينِ ثَمَّ هوىً دفينُ

ويروى أن بداية ظهور عشقه لليلى، أنه مرَّ يومًا على ناقة له بامرأة من قومه، وعندها نسوة يتحدثن، فأعجبهن، فاستنزلنه للمنادمة، فنزل وجعل يقلِّب طرفه حتى وقع على ليلى فلم يصرف عنها طرْفًا. وشاغلته فلم يشتغل، ثم قال لها هل عندكم ما تأكلن، قالت: لا. فعمد إلى ناقته فنحرها وقطّعها، وجاءته لتمسك معه اللحم فجعل يحزُّ بالمدية في كفه وهو شاخصٌ فيها حتى أدمى كفَّه، فجذبتها من يده

ولم يدر. وأوقد نارًا لشواء اللحم وطرح قطع اللحم فيها. ثم قال لها ألا تأكلين الشواء. فقالت نعم. فطرح من اللحم شيئًا على الجمر وأقبل يحدثها. فقالت له انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمد يده إلى الجمر وجعل يقلب بها اللحم. فاحترقت يده وهو لا يشعر. فلما علمت ما داخله. صرفته عن ذلك. ثم شدَّت يده بهدب قناعها. ثم ذهب وقد تحكَّم عشقها في قلبه فقال:

أمرُّ على الدِّيارِ ديارِ ليلى

أقبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما حبُّ الدِّيارِ أهاج وجدي

ولكنْ حبُّ من سَكِنَ الدِّيارا

وكان كثير التردُّد على ليلى والحديث معها مع بقية بنات الحي. وكان أظرف الفتيان وأرواهم لأشعار العرب. ولم يكن الجلوس معها مستغربًا آنذاك حيث إنه نشأ يلعب ويرعى الأغنام معها صغيرًا.

كما ذكر أنه ذهب مرةً لطلب نارٍ من بيت ليلى فأخرجت ليلى له النارَ في خِرقة. ووقفا يتحدَّثان فلما احترقت الخرقة قطع قطعةً من ردائه وجعل النار فيها. واستمرَّ يقطع من ردائه وهما يتحدثان حتى لم يبقَ عليه إلا ما وارى عورته دون أن يدرك ما حدث.

فقصة إحراق ثوبه إن لم تكن من اختلاق الرواة. فقد تكون وقعت له بعفوية وبراءة. ولكني أدرك أن قيس بن الملوح كان متعمِّقًا في اللغة ومعانيها ومفرداتها التي صاغ منها تلك القصائد الرائعة في الحب وخلجات القلوب. ولم أعثر له على أبيات شعرية تصف تلك القصة لأنها في الشعر قد تكون رمزية. فإن كان قد ذكرها في أبيات مفقودة فقد يكون يقصد - شعوريًّا أو لا شعوريًّا - أن احتراقَ ثوبِه

يدلُّ أو يرمز إلى احتراق بدنه أو نفسه أو قلبه من شدة الحب، حيث إن الثياب لها كل تلك المترادفات في اللغة. ففي المحيط في اللغة ذُكر أن العرب تكني بالثياب عن الأبدان والنفس. وقد ورد في تاج العروس أنه قد يطلق الأثواب على لابسيها. والعرب تكني بالثياب عن النفس لاشتمالها عليه. ومن مترادفات الثوب القلب، (مجنون ليلى) وأُجبِرت ليلى على الزواج برجلٍ آخر.

وحين شاعَ خبر هذا الحب الذي يربط بينهما حتى أصبح هذا الحب على الألسن تتناقل قصة هذين العاشقين، وتطوَّر هذا الحب وأصبح قيس أسيرًا له، حتى أخذ يؤثر على سلوكه وتصرفاته، ولاحظ عليه زملاؤه بعض مخايل الجنون فلقَّبوه بالمجنون، أو مجنون ليلى.

وعندما انتشرت قصة العشق هذه مُنعا من اللقاء فأصيب قيس بالإحباط وهامَ على وجهه في الصحراء وصاحب الحيوانات، وامتنع عن الأكل والشراب، وأخذ يتنقَّل بين الوديان والقفار ينظم شعرًا يفيض رقة وعذوبة، وكان إذا توجَّه في مكان بالقرب من ليلى قال:

يا شمع أسرار الروح

رفقًا بفراشة روحي حتى لا تحرق بنارك

أنت الدواء لدائي، والمرهم لجرحي

قد أصابتنا العين ففرقتنا[1]

وعندما زادت حالة قيس سوءًا، خطب والد قيس ليلى لقيس، ولكن والدها رفض قائلًا:

---

[1] - أبيات مترجمة من المرجع الفارسي لنظامي كنجوي

إنه يظهِر الجنون، فلا يليق بنا أن نصاهر مجنونًا، ثم قال مخاطبًا والد قيس: أنت تعلم كيف يتتبع العرب العيوب فماذا يقولون لو أنني أقدمت على هذا الأمر؟

وحاول أهله أن يزوّجوه غيرها لكن قيس رفض، وآثر الانزواء في الصحارى، وأخذ يضرب في الصحراء، ومع اشتداد تولُّهه وجنونه؛ فكر والده في الذهاب به إلى الحج لعله ينسى ما أصابه، ولكن قيس عندما وصل أرض الحجاز قال:

"يا رب بعزة ربوبيتك وجلال ألوهيتك اجعلني أبلغ أقصى درجات العشق حتى يبقى، امنحني النور من عين العشق، فيا رب هبني - في كل لحظة - ميلًا أعظم إلى ليلى، وخذ ما ما بقي من عمري، وزد في عمرها".

وبعدما يأس أهل ليلى من أمر قيس وهيامه في كل مكان منشدًا شعرًا في ليلى، حتى لاكت الألسن سيرتها شكا أهلها أمر قيس إلى الوالي الذي أباح لهم دمه إذا قدم إلى حيِّهم، وحاول والد قيس أن يثنيه عن حب ليلى، ولكنه قال رافضًا: ما دام الأمر خارجًا عن نطاق اختيارنا، فإن تحسين الحال أو تغييره ليس من شأننا، وقال: إنكم تلومونني في البكاء وفي شأن المبتلين، إنني - أخاف أن أضحك فأحترق بضحكتي كما يحترق السحاب بضحكات البرق".

عندما تعذَّر اللقاء بينهما أصبحا يتراسلان شعرًا، وكانت ليلى تسرِّي عن نفسها بالخروج بين الحين والحين إلى التنزُّه في فصل الربيع داخل حديقة مجاورة، وكانت الحديقة قد غصت بالورود الحمراء والصفراء، وفي أثناء التنزُّه رآها شاب من قبيلة بني أسد اسمه ابن سلام فأعجب بها وتقدَّم لخطبتها فوافق والدها، حتى تبرَّأ من سقمها.

وفي هذه الأثناء التقى قيس بأحد وجهاء العرب يدعى نوفل، وهو من أصحاب السطوة والسلطان الذي وعد قيس بالمساعدة بالمال أو بالحرب، ولما رفض والدها الجاه والمال تقدَّم نوفل لمحاربته حيث

أسره، ولكنه أصرَّ على موقفه وقال لنوفل تضرعًا: إما أن تستجيب لتضرُّعي وتعفيني من هذا القيد وإلا فإني أقسم بالله أنني عندما أعود إلى ديارى سوف أقتل هذه العروس وألقي برأسها في طريق الكلاب حتى أتخلص من اسمها وعارها، عندها عرف نوفل أن لا فائدة من والدها فأطلق سراحه، وعندما علم قيس بذلك حزن كثيرًا، أما ليلى فقد أرغمت على الزفاف إلى ابن سلام، وعندما حاول أن يقترب منها صدَّته قائلة:

"أقسم بخالقي الذي صوَّرني على هذا الجمال لن تنال مني غرضًا وإلا أرقت دمي بسيفك". عندها يئس من وصالها وقنع منها بالرؤية.

وعندما فقد والد قيس صلاح ولده، تأثَّر عليه ونزل به المرض حتى مات، واستمرَّ حال قيس في الصحاري ينتقل من مكان لآخر، وألف حياة الصحراء مع الوحوش وألفته وأحبته، وكان إذا ما سار سارت حوله مشكلة صفَّين وكأنها تحرسه.

وسمع شابٌّ ثريٌّ يُدعى سلام قصة مجنون ليلى فتوجَّه إلى ديار المجنون لأنه هو كان عاشقًا مثله، ومكث معه فترة يسجِّل أشعاره، وعندما أشار سلام على قيس ناصحًا بالابتعاد عما هو فيه قال له:

"لا تظن أني ثمل، وأني صريع الهوى، بل إنني سيد مملكة العشق، لقد تجرَّدت من أسباب المادة وربقة الشهوات، فالعشق الطاهر خلاصة الوجود".

وبعد فترة مات زوج ليلى، ثم احتجبت هي؛ لأن من عادة العرب أن تحتجب من مات زوجها لمدة قد تصل إلى عامين، فمرضت وتوفِّيت، وعندما علم قيس بذلك جاء قبرها وبقي ينتحب حتى مات، فدفن مع ليلى.

وبعد أن حُرما من اللقاء في الدنيا، دفن قيس وليلى بعد موتهما في قبرين متجاورين.